(٥) بيرم التونسى
مات ليلة عيد الأقباط والمسلمين

عندما سألوا أمير شعراء الشعب، بيرم التونسى، عن قصة حياته.. لخصها فى ثلاثة سطور.. قال فيها:

الأوله: مصر، قالوا تونس ونفونى. الثانية: تونس، وفيها الأهل جحدونى! والثالثة: باريس، وفى باريس جهلونى!.

وبهذا الاختصار العجيب استطاع هذا الشاعر العظيم أن يقول كلمته ويقدم نفسه للناس وللتاريخ فى أعظم صورة جمعت بين العديد من المتناقضات، والمتعمق فى دراسة هذه السطور الثلاثة سوف يكتشف أيضا مأساة بيرم من خلال كلماتها، فهو مصرى المولد والمنشأ والكفاح والأشعار وأشياء أخرى كثيرة لم تشفع له من أجل البقاء فى مصر والعيش تحت شمسها، برغم حبه وولعه لها..

وهو أيضا تونسى الأصل.. من ناحية أجداده ووالده..

ومع ذلك لم يعتبره أهل توس من أهلها!.. لذا رفضوا أن يقيم بينهم أثناء محنته التى قضاها منفيا لمدة عشرين عاما!

وفى ربوع باريس ومدن فرنسا التى وصلها مطرودا من مصر بسبب مواقفه الوطنية ضد الملك وضد الاحتلال البريطانى آنذاك. أهملوه.. وضاعت منه ملامح الأيام. وطوال العشرين عاما التى قضاها هناك ماتت أحاسيسه الخاصة وإن زادته قوة ووطنية.. وأصبح يحن لمصر من حين لآخر.. حتى عاد إليها هاربا من المنفى!!

إنها قصة كفاح شاعر وأديب تستحق أن نرويها كثيرا لما فيها من عظمة وصمود وإصرار على رفض الأخطاء مهما عظمت.. وتلك من سمات شاعرنا الكبير محمود بيرم الشهير بالتونسى. والتى أهلته لكى يكون من بين عظماء هذه الأوراق من أعلام الفكر والأدب.

إن عظمة بيرم شاعر الشعب وأمير شعرائه أنه بالفعل كان نموذجا للشخصية المصرية وابن البلد الذى عاش فى خضم المتناقضات الاجتماعية التى كانت سائدة فى مصر لسنوات طويلة مع مطلع هذا القرن. وقد استطاع من خلال كلماته النارية مقاومة المستعمر بطريقته الخاصة.. كما استخدم أشعاره من أجل الحرية.. مثلما فعل غيره من أدباء فرنسا من أمثال فولتير وجان جاك روسو وآخرين.

ومن مميزات بيرم الشاعر الفنان على حد قول النقاد.. إنه لم يكن يتعامل مع الفن أو مع الأدب معاملة ناعمة.. وإن اختلف منهجه هذا فيما بعد، حين أخذ يكتب لأكبر المطربين والمطربات من أمثال أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب.. والسبب فى ذلك كان يرجع إلى شعوره الدائم بالثورة على التقاليد الاجتماعية التى خربت نفوس الناس.

ليس هذا فقط.. بل كان أكثر ثورية فيما كان يكتبه فى المجال السياسى، حيث كان مدويا فى كل مكان لإيقاظ الذين ناموا طويلا بعد إخفاق الثورة العرابية. وقد عبرت الصحف التى أنشأها آنذاك فى فترة كفاحه الوطنى عن هذه الثورية النادرة، حتى من عناوينها إضافة إلى ما كان بها من مضمون.. فنراه يسمى "المسلة".. مثلا "الخازوق"!

وعندما مات.. أرثاه عباس محمود العقاد بكلمات قال فيها: "لقد رحل العبقرى الذى فقده العالم العربى.. حيث كانت من أهم آيات هذا الشاعر العظيم أنه كان يفهم السريرة الناطقة بالعربية من بواطنها الخفية قبل أن يحكيها بلهجاتها الكثيرة على الألسنة أو على الأقلام.."

ونستطيع أن نؤكد وفق ما سوف تفصح عنه الأحداث القادمة.. أن بيرم التونسى كان شاعرا وطنيا جمع بين العروبة والعذوبة

والكلمات الرقيقة وأيضا بين الهموم والصعوبات والمشاكل التى ارتبطت بحياته خاصة منذ نشأته الأولى ومن بعد رحيل والده.. وظلت هذه المشاكل تلاحقه دوما سواء داخل مصر أو خارجها.. وكانت من أخطر نتائجها ما قاساه من آلام الغربة وآلام الأمراض التى كان فى مقدمتها مرض الربو الذى قضى عليه فى أخريات أيامه.. بعدما أصابه فى منفاه.. ثم اشتد عليه بعد عودته!

ومحمود بيرم التونسى من مواليد ٤ مارس عام ١٨٩٣ بحى الأنفوشى بالإسكندرية ولقب بالتونسى نسبة إلى جده الشيخ مصطفى بيرم الذى جاء من تونس وأقام بالإسكندرية وتزوج وأنجب ثلاثة أبناء كان أحدهم الحاج محمود مصطفى بيرم والد شاعرنا العظيم، وكان يعمل فى صناعة وتجارة النسيج، وعندما أصبح عمر بيرم أربع سنوات ألحقه والده بكتاب الشيخ جاد الله فى حى السيالة، ثم ألحقه بالمعهد الدينى الذى كان مقره فى مسجد سيدى أبو العباس المرسى، وفى سن الرابعة عشرة مات والده، فانقطع عن المعهد وبدأ يزاول العمل فى التجارة لكنه فشل واضطر للعمل فى البقالة فى سبيل لقمة العيش، وبعد عامين توفيت والدته فأحس أكثر بالحرمان.

هذا ما سجله التاريخ عن حياة بيرم ونقله النقاد والمؤرخون.. أما بيرم نفسه فله حديث آخر عن نشأته وميلاده.. وقد سجل كلماته هذه فى مذكراته التى كتبها على حد قول المؤرخ كمال سعد فى مدينة حلوان فى يناير من عام ١٩٦١ أى قبل أيام من رحيله..

ومما ذكره بيرم التونسى فى هذه المذكرات: أنه ولد فى حى الأنفوشى بشارع البورينى بالسيالة. ولكن قيده ضمن مواليد حى الأزاريطة فى جهة الرمل.. كما أنه من مواليد ٢٣ مارس عام ١٨٩٣ بخلاف ماذكره المؤرخون. وأضاف «وأدخلنى والدى مكتبا لتعليم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم فى الحى نفسه. وقضيت به فترة من الزمن تعلمت فيها وحفظت بعض سور القرآن. ثم نقلت لطلب العلم فى مسجد المرسى أبى العباس والبوصيرى. وهناك أقبلت فى نهم وشغف على ما كان يلقى علىّ من دروس.

ولظروف خاصة تركت العلم إلى غير رجعة.. فودعت المعهد الدينى ثم اشتغلت بقالا فى الحى. ومالبثت أن ازددت ثقافة من كثرة ماكنت أقرأ من الكتب القديمة التى كنا نجلبها ونبيع فيها للمشترين..

وحين كان يسأل بيرم عن جنسيته يقول: إنه مصرى ١٠٠٪ ولكن جدى لأبى كان تونسيا ونزح إلى مصر فى عام ١٨٣٣ فى عهد محمد على الكبير.. وأمى مصرية ١٠٠٪ واسمها نجية عبد الخالق أبوشال.. وأسرة والدتى كانت تملك رمل الاسكندرية ابتداء من قهوة "اتينيوس" بميدان سعد زغلول إلى محطة فكتوريا طولا وعرضا.. أما الوالد فكان يمتلك مصنعا للنسيج استولى عليه أبناء العم بعد وفاته فى عام ١٩٠٦.

ولو نظرنا بعين المدقق لبداية المأساة فى حياة بيرم على الأقل من الناحية الاجتماعية سوف نكتشف أنها قد بدأت فعلا مع رحيل والده فى عام ١٩٠٦ وبعد استيلاء أبناء عمه على مصنع النسيج.. ولا نستطيع أن نقول إن تلك المأساة كانت أحد الأسباب المباشرة فى نمو الوعى الأدبى المبكر لدى بيرم.. وهو نفسه يؤكد ذلك.. وإنما ربما لعبت هذه الظروف أحد الدوافع القوية لاشتعال الموهبة داخل نفس بيرم دون أن يدرى.

وكانت من أهم الظروف الاجتماعية الصعبة التى عاشها بيرم فى فترة حياته المبكرة اكتشاف أمه زواج أبوه من راقصة. عن طريق المصادفة وأنه كان يقيم معها حيث أسكنها فى منطقة بعيدة عنهم هى "الأزاريطة" التى كانت فى ذلك الوقت من ضواحى الإسكندرية غير المعمورة!

بل أكثر من ذلك تلك الإشاعة التى راجت آنذاك فى الحى كله بموت والده عن طريق السم البطئ على يد هذه الراقصة طمعا فى أمواله التى كان يربطها فى حزام على وسطه!!. وكان لموت والد بيرم أشبه بكارثة عليه وعلى والدته وأسرته.. حيث لم يترك لهم أموالا يعيشون منها بعد رحيله.. وحتى المصنع الذى ورثه عنه استولى عليه أبناء عمه بلا مقابل!!

ولم ينقذ بيرم من هذه المشاكل الاجتماعية التى بدأ يواجهها وهو فى سن الثانية عشر من عمره سوى القراءة والاطلاع.. وأيضا تأليف الأشعار وكان فى هذه الفترة قد بدأ يعمل بقالا. كما كانت الكتب التى يستخدم أوراقها فى لف البضاعة هى المصباح السحرى الذى نقله إلى عالم الأدب وهو عالم غير العالم الذى كان يعيش فيه آنذاك!

وازدادت حياة بيرم تعقيدا فى الفترة نفسها إذ تزوجت أمه من قريب لها.. فأخذه الزوج الجديد ليساعده فى صناعة "هوادج الجمال".. وكان عمل بيرم الجديد شاقا للغاية.. وكان دائما يقول لأصدقائه: "كنت أشيل أثقالا على ظهرى. ولهذا ربت لى هذه الصنعة أكتافا وعضلات فيما بعد فى حياة الشقاء التى عشتها فى فرنسا فى المنفى".

ولم ينقذ بيرم من هذا العمل الشاق سوى موت أمه فى عام ١٩١٠ ويحاول بيرم للمرة الثانية أن يهرب من همومه الخاصة ومشاكله الاجتماعيه فيتزوج من ابنة تاجر عطارة.. بعدما انخرط فى تجارة البقالة والسمن.. ولكن موهبته ظلت تؤرقه كثيرا حتى ملكت عليه نفسه وحياته.. فكتب أول قصيدة عن مظالم المجلس البلدى قال فى بعض أبياتها:

قد أوقع القلب فى الأشجان والكمد
هوى حبيب يسمى المجلس البلدى
ما شرد النوم عن جفنى القريح سوى
طيف الخيال ، خيال المجلس البلدى

ومما يقال فى سياق هذا الزجل إن السبب الرئيسى وراء تأليف الشاعر بيرم التونسى لهذه الكلمات إنه وبعد أن قرر الزواج والعيش فى هدوء بعد رحيل أمه.. باع البيت الكبير الذى ورثه عن والده.. واستخدم جزءا كبيرا من ثمنه فى تجارة التجزئة واشترى بالباقى بيتا صغيرا.. إلا إنه فوجئ ذات يوم بالمجلس البلدى بالإسكندرية والذى كان يسيطر عليه الإنجليز يحجز على منزله الجديد ويطالبه بمبلغ كبير كعوائد عن سنوات لا يعلم عنها شيئا!

ويذهب بيرم الفنان والشاعر العظيم بأول إنتاجه عن المجلس البلدى إلى جريدة الأهالى طالبا نشرها. وبالفعل وافق صاحب الجريدة آنذاك عبد القادر حمزة بنشر قصيدة المجلس البلدى فى الصفحة الأولى وكانت بذلك أول عمل أدبى ينشر لبيرم فى الفترة نفسها. بل أكثر من ذلك وكما قال بيرم «لم أكتف بنشرها فى الصحيفة. بل أصدرت كتيبا يتضمنها بعته بـ ٥ مليمات للنسخة الواحدة. فراج الكتاب رواجا عظيما. وطبعت منه مائة ألف نسخة. وهكذا وجهنى القدر إلى مهنة الأدب كوسيلة للرزق. ثم بدأت بعد ذلك فى إصدار كتيبات أخرى صغيرة بها قصائد أنتقد فيها مختلف العادات الاجتماعية..».

ويؤكد الناقد كمال سعد إن الشاب بيرم قد بدأ بعد نجاح هذه القصيدة يشعر وكأنه أصبح شيئا مهما فى عالم الأدب فترك التجارة واهتم بتأليف الشعر. إلا إنه أدرك بعد فترة أن الشعر وسيلة محدودة الانتشار بين شعب ٩٥٪ من أبنائه لا يقرأون. فاتجه إلى الزجل ليقرب أفكاره إلى أذهان الغالبية العظمى من المصريين.

ومن حسن حظ تاريخ الفن والأدب العربى أن التقى بيرم التونسى فى فترة ظهوره الأولى بفنان الشعب الموسيقار سيد

درويش ابن بلده الذى جاء هو الآخر من الإسكندرية.. وكان لسيد درويش -كما يعترف بذلك بيرم نفسه- الفضل فى تشجيعه على تأليف أول أغنية حماسية.. وفى تأليف المسرحيات الغنائية التى كانت تعرف آنذاك باسم "الأوبريتات".. ويذكر المؤرخون أن التعاون بين شاعر الشعب وموسيقار الشعب قد أثمر عن إنتاج أكثر من مسرحية غنائية من أشهرها شهرزاد والتى ردد فيها قوله المشهور:

أنا المصرى كريم العنصرين
بنيت المجد بين الأهرامين
جدودى أنشأوا العلم العجيب
ومجرى النيل فى الوادى الحضيب

* * *

ورويدا رويدا.. بدأ الشاعر العظيم بيرم التونسى يزحف ناحية النجومية التى ارتبطت فى الواقع بإحساسه بهموم وطنه مصر اجتماعيا وسياسيا حيث حركت فيه أحداث ثورة ١٩١٩ أحاسيس أخرى.. وجعلته يزحف بكل كيانه ناحية مواطن الخطر متمثلة آنذاك فى مهاجمته الملك فؤاد.. فخرجت أشعاره النارية مؤيده لثورة ١٩١٩ ومهاجمة بعنف الملك وأعوانه.

وقد اتضحت ثورية بيرم بعد ٨ مارس من العام نفسه حين تم اعتقال سعد زغلول ورفاقه ونفيهم جميعا إلى جزيرة مالطة. فأخذ يسهم في المظاهرات التى انطلقت أولا فى الإسكندرية ويهتف بأشعاره للحرية و الاستقلال.

ويروى بيرم التونسى نفسه ذكرياته عن هذه الأيام بقوله: اشتركت في الثورة على طريقتى الخاصة، لم أقذف بالحجارة، ولم أحطم مصابيح النور، وإنما نظمت مقطوعات زجلية مناسبة للمقام، اشتركت بها فى المظاهرات، فكانت أشد وأقوى من الحجارة.. بل ومن القنابل أيضا..»

ولم يكتف بيرم الملتهب بالحماس و الوطنية بذلك فقط.. بل زحف إلى القاهرة لكى يعيش فى قلب الأحداث.. وهذه المرة أخذ يبحث عن وسيلة جديدة يساهم بها فى الثورة.. ولم يكن أمامه آنذاك سوى إصدار الصحف!!

ففى يوم ٤ مايو عام ١٩١٩ يصدر صحيفته الأولى التى صدرت بعنوان "المسلة" وينزل إلى الشوارع ليوزعها بنفسه!. وكان أول صدورها فى مدينة الإسكندرية. وعلى إثر نجاح هذه المجلة.. قرر بيرم الاستقرار نهائيا فى مدينة القاهرة ليكون بالفعل فى قلب الأحداث السياسية.. وفيما أصدر العدد الثانى من مجلة

المسلة.. وجاء فيها هجومه الشديد على مفتى الديار المصرية آنذاك لمعارضته سفر سعد زغلول واختلافه مع وجهات النظر الوطنية!

ويقترب بيرم التونسى أكثر من ذى قبل من الاصطدام مع الواقع فى شخص الملك فؤاد.. هذا الاصطدام الذى أسفر عن إبعاده عن مصر لمدة عشرين عاما!. ففى العدد الثالث عشر من مجلة المسلة نشر بيرم العديد من أزجاله اللاذعة والتى انتقد فيها سلطات البلاد.. وكان من أخطرها قصيدته التى نشرت بعنوان «البامية ملوكى.. والقرع سلطانى !!.. والتى اتهمت صراحة الملك فؤاد أن وريث العرش الجديد ابنه الصغير قد ولد بعد أربعة أشهر من زواج الملك من الملكة نازلى!!

وكانت بداية هذا التصادم أن أمر الملك بنفسه بإغلاق صحيفة المسلة.. وتغلق الصحيفة. ولا ييأس بيرم. فيصدر مكانها صحيفة أخرى اسمها "الخازوق"! ويفتتح العدد الأول والأخير منها. بمقال عنيف يهاجم فيه المحافظ "محمود خيرى باشا".. زوج الأميرة فوقية ابنة السلطان فؤاد من زوجته الأولى شويكار تحت عنوان "لعنة الله على المحافظ".

عندئذ لم يجد الملك فؤاد من وسيلة لإسكات هذا الصوت الذى أرعبه كثيرا سوى الاتصال بالإنجليز، حتى يتوسطوا لدى القنصلية الفرنسية لهذا الرجاء، وتوافق على ترحيل بيرم إلى وطن أهله تونس، حيث إنه لم يكن يحمل الجنسية المصرية!!.. وكان ذلك يوم ٢٥ أغسطس من عام ١٩٢٠!!

* * *

ونستطيع أن نؤكد من قبل استعراضنا لتفصيل هذا النفى الذى طال حياة الأديب والشاعر العظيم بيرم التونسى وهو لم يبلغ بعد السابعة والعشرين من عمره.. أن أيامه الأخيرة قد بدأت الزحف بقوة ناحية دائرة الضوء التى لا نستطيع تحديد النقطة التى ستصل إليها الأحداث إلا فى حينها.. برغم أن بيرم فى هذا التوقيت بالذات كان يعيش فى فترة فتوة الشباب.. ولم يتأثر كثيرا بالصعاب الاجتماعية التى مر بها آنذاك والتى كان من أقساها على نفسه رحيل زوجته التى قضى معها ست سنوات وأم أولاده محمد ونعيمة..

كما لم تغنه هذه الصعاب أو تخفف عنه وطأة الآلام النفسية إقدامه على الزواج من سيدة أخرى.. بعد ١٧ يوما فقط من رحيل الزوجة الأولى.. ذلك لأن امرأته الجديدة لم تطق طفليه الصغيرين

فاضطر إلى إرسالهما إلى حماته بالإسكندرية لتربية الطفلين. ولولا انخراطه فى أحداث ثورة ١٩١٩ آنذاك لظلت آلامه النفسية تطارده وتعكر عليه صفو حياته وأشعاره وأمجاده!

كما نستطيع أن نؤكد فى هذا السياق أن بيرم التونسى.. يعتبر من أوائل الأدباء الذين ذاقوا مرارة الرحيل قبل أوانه الأخير.. وذلك على إثر قرار نفيه خارج مصر والذى استمر لمدة عشرين عاما. وإن كان قد لحقه فى ذلك أمير الشعراء أحمد شوقى.. حين تم نفيه على يد السلطان حسين كامل إلى أسبانيا لمده ٥ سنوات. ولكن الفرق بطبيعة الحال سيكون كبيرا.. ومؤشر الميزان سيميل بقوة ناحية أمير الشعراء.. والأحداث التى صاحبت رحيل هذين العظيمين أكدت ذلك وأكثر.

من هنا نرى أن بيرم التونسى مثله مثل العظماء من رجال السياسة الذين مرت علينا بعض أحداث أيامهم الأخيرة.. والذين ذاقوا مرارا هذا الرحيل من مصدرين: الأول النفى مثل الخديوى إسماعيل و أحمد عرابى و سعد زغلول و الملك فاروق.. والثانى الموت.

ولولا المشاكل الصحية الخطيرة التى أسفرت عن نفى بيرم التونسى خارج مصر طوال عشرين عاما. والتى كانت المقدمة

الحقيقية لرحيله إلى الأبدية.. لما كنا قد توقفنا عند تفاصيل هذا الرحيل أو هذا النفى.. برغم أنه عاش بيننا لأكثر من عشرين عاما أخرى بعد عودته إلى مصر من منفاه.. ولكنها كانت بالفعل كلها آخر أيام فى حياة بيرم.. سرعان ما أخذت تجره بقوة ناحية الرحيل الأخير الذى حدث فى عام ١٩٦١!.

وتقول تفاصيل رحلة النفى فى حياة بيرم كما سجلتها العديد من المصادر.. إنه فى يوم ٢٥ أغسطس من عام ١٩٢٠، أى فى اليوم الذى كان فيه المسلمون يحتفلون بعيد الأضحى المبارك. وكانت مصر آنذاك تعيش فى وزارة محمد توفيق نسيم التى بغضها الشعب لاتهامه إياها بأنها وزارة عميلة جاء بها القصر بدون برنامج استخفافا بالحركة الوطنية وبعد استقالة وزارة يوسف وهبى باشا.

كما صدر أمر نفى بيرم فى لوقت الذى كان فيه سعد زغلول ما زال غائبا فى سويسرا من أجل العلاج والاستشفاء.. وبعد صدور الأمر الملكى توجه كل من الضابط أحمد عبد الرحمن والأميرالاى ماركو بك والضابط الإنجليزى فتز باتريك وكذلك حكمدار العاصمة رسل باشا إلى مقر صحيفة بيرم لإغلاقها وإلقاء القبض عليه.

ويحاول بيرم إقناع البوليس -قبل ترحيله- بضرورة أن يمر على زوجته وأولاده بالإسكندرية. لكنهم لم يسمحوا له بذلك لأن الأوامر الصادرة إليه تؤكد ضرورة مغادرته مصر فى الحال!. فاستسلم لهم. عندئذ صحبوه معهم إلى محافظة القاهرة بباب الخلق ومنها إلى محافظة الإسكندرية وفى الليلة نفسها تقذف به السلطات على ظهر الباخرة "شيلى" إلى تونس.

وفى ميناء تونس تلقى الباخرة بيرم على رصيفها ولم يكن يعرف آنذاك من تفاصيل عن أصول أسرته وأجداده سوى ما حكته له أمه عن جده الكبير قبيل وفاتها.

وبعد كفاح مرير وسؤال هنا وهناك. استدل بيرم على أعمامه فى تونس وقد ظن أن الأمور سوف تتحسن كثيرا وربما يعيش وسطهم آمنا.. لكنه يفاجئ بتلك المعاملة السيئة التى لاقاها من هؤلاء بسبب جدته الجارية التى تزوجها جده بعدما أهداها إليه السلطان التركى! مما اضطره إلى الابتعاد عن أقاربه.. والبحث عن عمل يعينه على الحصول على قوت يومه فى تلك البلدة التى نبذه فيها أهل أبيه!

وبعد أن قضى بيرم فى تونس ٤ أشهر من العذاب الأليم والوحدة والمعاملة القاسية سواء من الإدارة التونسية باعتباره

مشاغبا. وباعث ثورات أو من أهله الذين جحدوه. اضطر إلى السفر إلى ميناء مارسيليا بفرنسا.. ولكن لقسوة الغربة وسوء الأحوال الجوية والبرودة الشديدة التى لم يتحملها بيرم. انتقل بعد ثلاثة أيام من مرسيليا إلى باريس. وقد دفعه إحساس الغربة بأن يسجل انطباعاته على شكل زجل قال فى بعض أبياته:

الفجر نايم وأهلك ياباريس صاحيين
معمرين الطريق داخلين على خارجين
ومنورين الظلام راكبين على ماشيين

ويفشل بيرم فى الحصول على عمل فى باريس فينصحه بعض المغتربين على حد قول كمال سعد بالسفر إلى مدينة ليون.. وقد حكى بيرم له عن ذكرياته فى هذه المدينة حين قال: «وصلت لهذه المدينة فى عز الشتاء. ولأن جيوبى كانت شبه خاوية فقد أخذت المسألة من أقصر طرقها. وذهبت إلى أفقر أحيائها. واستأجرت فوق سطوح أحد المنازل شيئا يسمونه حجرة كانت من الخشب الذى حولته مياه الأمطار إلى مكان له رائحة من نوع خاص. إنها رائحة قريبة من العفن. وداخل تلك الثلاجة كنت أنام الليالى القاسية البرودة. وفى النهار كنت أسعى مع الفجر لأجد فى البحث عن عمل قبل أن يتبخر أخر مليم فى جيبى».

وأضاف بيرم يحكى لمحدثه عن بقية مأساته فى مدينة ليون: لقد التحقت للعمل بمصنع الحديد والصلب وتركته بعد أن سقطت على فخذى قطعة حديد كبيرة!

وفى عام ١٩٣٢ كانت فرنسا تمر بأزمة اقتصادية حادة ضاعفت من أعداد البطالة واضطرت إلى ترحيل كثير من المغتربين إلى البلاد التابعة لنفوذها وكان من نصيب بيرم أن أعادوه إلى تونس حيث بدأ هناك يكتب فى بعض الصحف مشاركا فى مقاومة الاحتلال الفرنسى لبلاده مما اضطر السلطات التونسية والفرنسية إلى ترحيله إلى الشام!

وفى دمشق على حد قول المؤرخ الفنى حسن إمام عمر اضطر المعتمد الفرنسى إزاء كتابات بيرم الثورية أن يعيده مرة أخرى إلى باريس. وأثناء توقف السفينة اللبنانية التى كان يركبها فى بورسعيد للتزود بالوقود استطاع بيرم أن يتسلل إلى مصر مرة أخرى فى صيف عام ١٩٣٨ بعد غربة دامت عشرين عاما!

وبدون الدخول فى تفاصيل أخرى حول تأثير هذا النفى اللعين على حياة بيرم باعتباره كان المقدمة الحقيقية لرحيله عن عالمنا فى عام ١٩٦١.. نسوق هذه العبارة التى يستطيع القارئ من خلالها معرفة مدى تأثير هذا النفى على بيرم صحيا ونفسيا!

«ولم ينقذ بيرم من الموت جوعا فى باريس حين عاد إليها للمرة الثانية سوى عثوره على وظيفة فى شركة المنتجات الكيماوية العالمية. فهو يتمتع بقوة جسمانية. والوظيفة تحتاج إلى طراز معين من الناس لديهم قدرة تحمل الغازات الكيماوية الخانقة والمعادن القذرة ويمنحونه فى مقابل تلك الوظيفة ٢٠ فرنكا فى اليوم. وهو مبلغ لايكفى قوته الضرورى إلا بالعافية!

وتأكل الوظيفة الجديدة جانبا كبيرا من عافيته. وتجعله يبدو فى حياته إنسانا كئيبا.. حزينا.. لا تعرف الابتسامة طريقها إلى وجهه. وبرغم ذلك فقد كان يعود من عمله فى المناجم الذى يستغرق ساعات ليبدأ فى عمل أدبى جديد»[1]

لقد كان آنذاك يراسل مجلة هزلية فى القاهرة اسمها "الشباب" اتفق مع صاحبها على عبد العزيز الصدر أن يراسله فى مقابل أن يسلم لزوجته ثمن الأزجال حتى تستطيع بهذه النقود القليلة أن توفر أجرة المسكن والطعام!

ويعيش بيرم التونسى مرة أخرى فى مدينة القاهرة تحت مظلة الحرية التى نعم بها على إثر قرار العفو الذى حصل عليه

(١) بيرم التونسى -عاصفة من الحارة المصرية- كمال سعد.

له محبوه من الملك فاروق آنذاك. وقد توسط لدى الملك من أجل تحقيق هذا الغرض كل من الشيخ زكريا أحمد والفنان القدير سليمان نجيب الذى كان على علاقة طيبة بأحمد حسنين باشا الأمين الأول للملك فاروق ورئيس الديوان الملكى.

كما شارك فى هذه الجهود الشاعر الراحل كامل الشناوى.. ومن أجل حصول بيرم على العفو مكتوبا.. بادر بنفسه وألف قصيدة زجلية يرد فيها اعتبار الملك فاروق وأسرته.

ويبدو أنه كان وراء إقناع بيرم بهذا العمل ثلاثة من رجال السياسة الذين أحبوه وهم محمد محمود باشا رئيس الوزراء آنذاك ومحمود فهمى النقراشى وزير الداخلية وأحمد حسنين رئيس الديوان.

ويؤكد العديد من المؤرخين والنقاد أن بيرم بعد عودته لمصر فى عام ١٩٣٨ بدأ يزاول نشاطه الفنى والأدبى بعدما ابتعد عن السياسة.. فأخذ يكتب فى الصحف ويؤلف الأغانى والتمثيليات الإذاعية والمسرح الغنائى.. كما كتب أيضا للسينما. وبعد قيام ثورة يوليو حصل على الجنسية المصرية فى عام ١٩٥٤ ثم أصبح عضوا بنقابة الصحفيين. وفى عام ١٩٦٠ نال تقدير الدولة ومنح وسام الفنون.

وخلال السنوات العشرين التى قضاها بيرم حتى وفاته فى عام ١٩٦١ ظل قابعا فى بيته يعانى من آلام المرض الذى أصابه فى غربته خاصة مرض الربو اللعين.. وإن كان فى الفترة نفسها قد شغل نفسه بتأليف الأعمال الفنية المتطورة فى مجال المسرح والسينما والإذاعة.

كما عمل فى نفس الفترة فى عدة صحف ومجلات من أخصها مجلات الهلال وروزاليوسف وصحف أخبار اليوم والأهرام التى كان ينشر فى صدر صفحاتها الأولى أزجاله.. أضف إلى ذلك تأليفه الأغانى لأشهر الملحنين والمطربين من أمثال محمد عبد الوهاب وزكريا أحمد وأم كلثوم وفريد الأطرش وآخرين. وقد أبدع لسيدة الغناء العربى أعظم كلمات تغنت بها.. مثل أغنيات آه من لقاك فى أول يوم، وأهل الهوى، وشمس الأصيل.. وعشرات غيرها مما تشدو به أم كلثوم ونسمعه دوما فى كل مكان.

أضف إلى ذلك ما عاناه بيرم من أمراض الشيخوخة التى وجدت أمامها طريقا سهلا من أجل الهجوم المبكر عليه.. نظرا لحالات الضعف التى عاش خلالها على إثر معاناته الطويلة من أمراض أصابته فى الغربة.

ويؤكد أصدقاء بيرم التونسى أن آلام مرض الربو قد بدأت تشتد عليه بقوة منذ عام ١٩٥٤ نتيجة لكثرة سهره وإسرافه فى التدخين، ويبدو أن هذا التاريخ كان البداية الحقيقية للزحف نحو حافة الرحيل الثانى الذى انتهى به إلى حفرة الموت يوم ١٥ يناير من عام ١٩٦١.

ويقول شهود عيان الأيام الأخيرة فى حياة بيرم إنه ظل يعيش مريضا فى المنزل رقم (٢) بحارة النناوى بشارع السد البرانى بحى السيدة زينب.. بعدما رد زوجته إلى عصمته وكان قد انفصل عنها فى المنفى.. وطلقها وهو يعيش فى فرنسا عن طريق المراسلة.. ولما توفى زوجها الإسكندرانى أعادها اليه وعاش معها بحى السيدة زينب حيث أنجب منها ولدين هما محى الدين وأيمن.

ويقول كمال سعد أحد أصدقاء بيرم.. ومن الذين عاصروا أيامه الأخيرة.. "وقبل وفاة بيرم بعام واحد، كان موعدى معه فى مقهى بالسيدة زينب، وفى هذا اللقاء جلست لأستمع إليه عن قرب، وليكلمنى عن حياته وأيام شبابه التى ضاعت بلا ثمن فى المنفى مابين ليون وباريس وتونس ودمشق وبيروت وسوريا.

كان يحدثنى بمرارة عن الناس الذين اتصل بهم فى أزماته وأساءوا إليه، وعن الحاقدين اللذين كانوا يتطوعون بالإبلاغ عنه للتخلص من

موهبته بأسهل الطرق. وقال لى إن مثل تلك الأمور وغيرها جعلته يؤمن بالمثل القائل: البعد عن الناس غنيمة.. ولهذا انطوى على نفسه وأصبح لا يتصل بالناس إلا فى لقليل النادر! وأضاف شاهد العيان: "وكان حديث بيرم معى فى هذا الوقت لا يقطعه سوى صوت سعال الربو وهو يقتصر قلب الفنان، ووجدت نفسى فى أكثر من مرة أقول له: سلامتك، ألف سلامه، وكان يرد على بسرعة وهو يضرب بيده على صدره: أبدا.. أنا صحتى بومب.. زى ما أنت شايف.

وتركت بيرم بعد حديث طويل بيننا فى تلك الليله، وكان هذا هو آخر لقاء لى معى فقد مرت الأيام وسكت النغم إلى الأبد وعاشت الكلمات الحلوة والمرة أيضا. والتى حملها إلى الناس فى صور حية تتحرك أمامنا، عاشت النغمة الخالدة التى كان من النادر أن يجود علينا الدهر بمثلها.

وأذهب يوم وفاته حيث دخلت غرفته فى الصباح وزوجته "إحسان" كعادتها فوجدته فى حالة يرثى لها، كان صوت السعال لا ينقطع من فمه والكلام لا يخرج من تحت لسانه إلا ثقيلا ووجهه أصفر باهتا لا حياة فيه.

فأصيبت زوجته بحالة من الجزع والحزن لم تحتملها. فأرسلت فى طلب ابنته عايدة ،لتى جاءت مع زوجها التاجر

محمد محفوظ، وتدخل فى الوقت نفسه إحدى الجارات فى حارة السد البرانى لتقول لزوجة بيرم: البركة فيكى وفى الأولاد.. دى حالة موت!

وتصيب الصدمة كيان الأسرة وتفجعها. فترسل الزوجة فى طلب ابنته الأخرى نعيمة. كما ترسل تلغرافا آخر إلى ابنه محمد فى الإسكندرية.. ويصل الجميع ليموت بيرم على أيديهم فى الساعة الواحدة ظهرا يوم ٥ يناير من عام ١٩٦١ بعدما طلب كوبا من الماء، وكأنما كان يريد به أن يودع ماء النيل الذى طالما اشتاق إليه فى غربته وتصادف أن يكون هذا التوقيت ليلة عيد ميلاد الأقباط وعيد الفطر للمسلمين.

وفى صباح اليوم التالى.. يوم الفجيعة، سرت وراء الجثمان مع مجموعة من الناس ليس بينهم من الفنانين سوى بديع خيرى وأحمد رامى وزكريا أحمد ومحمود الشريف ورياض السنباطى ومحمد القصبجى وأحمد صدقى.

ووصل النعش إلى مقابر باب الوزير، حيث دفن هناك فى مدفن البكباشى محمد عارف.. وهو جد سعيد راتب زوج ابنة بيرم.. وكان آنذاك مدرسا بالمدرسة الحربية».

ويقول الأديب الصحفى محمد كامل البنا فى شهادته عن الأيام الأخيرة فى حياة شاعر الشعب بيرم التونسى:

مع بدايات عام ١٩٦٠ نشب خلاف بين الصديقين الملحن زكريا أحمد وبيرم التونسى أدى إلى قطيعة فترة من الزمن حتى توسط أصدقاء الطرفين وعملوا على إنهاء الخلاف بينهما خاصة بعد أن حكم القضاء لصالح زكريا أحمد وكان لى دور فى التقاء الأخوين المتجابين وإعادة المياه إلى مجاريها.

وماهى إلا أيام حتى سرى فى الوسط الفنى أن بيرم ألف أغنية جديدة لأم كلثوم بعنوان "أهو دا اللى جرى" وقدمها لزكريا أحمد ليلحنها.. ثم عرف أن زكريا وضع لها لحنا آية فى الروعة والإبداع. واتصل بى بيرم وحدثنى حديث الأغنية وأسمعنى كلماتها ومقاطعها. وقال لى إنه سوف يقدمها لزكريا غدا.

وكان ذلك قبل أن تغنيها أم كلثوم بأكثر من ٦ أشهر حيث أعلن عن موعد إذاعتها فى أواخر عام ١٩٦٠، ونشرتها إحدى الصحف اليومية قبيل موعد غنائها بيوم واحد.

وإذا ببيرم يتصل بى تلغرافيه فى الساعة الحادية عشرة مساء على غير عادته ويقول لى وفى صوته رنة حزن وأسى.. أنا فى غاية الأسى والحسرة لأن مندوب هذه الصحيفة قد أيقظنى من

منامى وأخرجنى من تحت الغطاء والربو يسرى فى صدرى ويكاد يودى بى وعرضنى للبرد القارس ليقول لى إن شابا من بورسعيد أرسل اليهم رسالة يقول فيها إن أغنية "أهو دا اللى جرى" من تأليفه وأنه أرسلها إلىّ منذ شهرين فانتحلتها لنفسى وأعطيتها لأم كلثوم على أنها من تأليفى، وأفهمت المحرر وغضبت وتألمت وذكرت له إنى أطلعتك عليها منذ زمن طويل.. لقد كان بيرم يكلمنى وفى لهجته رنة غضب وحنق وصوته لا أكاد أسمعه مما كان يقاسيه من آلام الربو اللعين.. وقلت له عد إلى فراشك ودفئك وسأتصل بالصحيفة أصحح لهم الوضع.

ويقول الشاهد أيضا: وقبل انتقال بيرم إلى رحمة الله وعلى وجه التحديد يوم ٥ يناير عام ١٩٦١، التقيت به يسير فى سوق التوفيقية متوكئا على غلام صبوح الوجه، جميل البسمة. فلما رآنى قال لى: ابن حلال. كنت سأتصل بك اليوم لتعرفنى على طبيب صديق لك قيل إنه ماهر فى علاج مرض الربو الذى هدنى منذ عشر سنين. فأجبته بأنى سأحدد له موعدا ثم أتصل به. وقدم لى الغلام فعرفت منه أنه ابنه محى الدين التلميذ الصغير، وسرت معه عدة خطوات ثم ودعته إلى لقاء سأحدده له.

وفى اليوم التالى عدت إلى منزلى فأخبرتنى السيدة حرمى أن

بيرم سأل عنى.. وقال أرجوك أن تتصل به الآن أو فى أى ساعة تصل إليها حتى ولو فى أى وقت من أوقات الليل فإن أزمة الربو اشتدت عليه.. ويريد الذهاب إلى الطبيب حتى يتمكن من لقاء آمال فهمى للاتفاق على فوازير رمضان. فاتصلت به على الفور فوجدته يعانى آلاما شديدة من أزمة ربو اعترته. فعرضت عليه أن أستحضر له طبيبا فى الحال، فقال إن المنزل غير لائق لاستقباله، وأنه يفضل الانتظار حتى تنتهى الأزمة ونذهب إليه معا.. واتفقنا بالفعل على تحديد يوم السبت ٧ يناير لزيارة الطبيب ولكن القدر كان أسبق من الموعد فلم تكد تمضى الليلة على حديثنا حتى فاضت روحه إلى بارئها مخلفة ورائها ثروة وكنوزا ستبقى على مر الأيام[1]

ولا ننسى فى هذا السياق أن نقف على شهادة زوجته التى قالت عن الأيام الأخيرة فى حياة بيرم: فى أواخر أيامه، اشتد عليه مرض الربو.. كان لا ينام كثيرا من ضيق التنفس الذى كان ينتابه كثيرا، ومن السعال الشديد، وبدأت صحته تتدهور بسرعة غريبة ثم رحل عنا فجأة.. ولم يترك لنا من شقى عمره أى شىء نعيش منه.

(١) بيرم التونسى كما عرفته محمد كامل البنا.